مرارة السخرية في " قلوبهم معنا و قنابلهم عليهم" لأحلام مستغانمي

الأستاذة: نوال بن صالح
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

ملحوظة:

المدونة بعضٌ من مجموع مقالات أحلام مستغانمي التي نشرتها على مدى عشر سنوات في مجلة زهرة الخليج الإماراتية، في زاويتها الأسبوعية. و قد رتبتها الكاتبة حسب تيماتها و موضوعاتها و اختارت أن تنشرها في شكل كتيبات ،هذه المدونة باكورة السلسلة التي تنوي الكاتبة مواصلة نشرها. "قلوبهم معنا و قنابلهم علينا" تيمتها الرئيسة الغزو الأمريكي للعراق و ما أحدثه في العالم كله، و في الواقع العربي بشكل خاص. تقول الكاتبة في توضيح صدّرت به مدونتها:" لا أعتبر هذه المقالات أدبا، بل ألما داريته حينا بالسخرية، و انفضحت به غالبا،عندما تعدّت الإهانة الجرعة المسموح بها لقلب عربي يعاني من الأنفة".(1) و تعترف الكاتبة أنها أثناء قراءتها لبعض المقالات ضحكت و بكت، و شعرت كما لو كانت ليست هي من خطّ سطورها. و ترد الكاتبة الساخرة على الذين يمكن أن يقولوا أنّ كتابها هذا جاء متأخرا، سيما و أنّ أمريكا على أهبة مغادرة العراق، ترد بقول كرومر يوم كان في القرن الماضي حاكما للسودان، وجاء من يسأله:" هل ستحكم مصر أيضا؟" فأجاب: "بل سأحكم من يحكم مصر"(2) فالمحتل لا يحتاج اليوم إلى أن يقيم بيننا ليحكمنا.(3)

لذا كانت السخرية ربما الوسيلة الأجدى التي يمكن أن تشفي غليل ملايين القراء العرب الذين غصّت حناجرهم من واقع عربي صار فيه الناس من صعوبة البكاء يضحكون على رأي نزار قباني.

مقدمة:

تقف السخرية على رأس الأساليب الفنية الصعبة،إذ أنها تتطلب التلاعب بمقاييس الأشياء تضخيما أو تصغيرا تطويلا أو تقزيما، هذا التلاعب يتم ضمن معيارية فنية هي

تقديم النقد اللاذع في جو من الفكاهة و الإمتاع. غير أنّ أسلوب السخرية يختلف من عصر إلى عصر، و يتفاوت من كاتب و آخر، بل إنه عند الكاتب الواحد ينمو ويتطور و قلما نجده منطبقا على نفسه.(4) لقد عرف السلف من كتابنا أشكالا عديدة للكتابة الساخرة في موروثنا النثري ، على امتداد العقود العباسية المتعاقبة على نحو ما نجده في كليلة و دمنة، البخلاء و المقامات و النوادر، و أخبار الحمقى والمغفلين و أخبار الظرفاء و غيرها من الأشكال النثرية. إنّ في السخرية قديمها وحديثها قدرا كبيرا من الغمز و اللمز و الهمز،من هنا كانت الفكاهة في السخرية وسيلة لا غاية في ذاتها. فالسخرية فن مركب، معقد يحتاج بصفة مستمرة إلى ثلاثة أركان قبلية(5):

* قدر كاف من المرارة التي تعجز اللغة المعيارية أو القاموسية عن توصيلها و إن احتكمت إلى الفذلكة و الاحتراف الأدبي.

* قدر كاف من الصدق و الإحساس لنقل الرسالة ،بخلاف النشاط الكتابي "العادي"الذي يركز على الازدراء اللغوي، تستند السخرية إلى شحنة كبيرة من العاطفة ،من هنا كان مخرجها من القلب قبل أن تكون من العقل.

* قدرة كافية على الضحك من قلب المرارة ،أن يتحدث الكاتب ضاحكا عن أمر مبكياته أن يبتسم و هو مقطب الجبين في آن واحد، و ليس المزج بين هذين النقيضين بالأمر السهل.

1ـــ مفهوم السخرية:

جاء في لسان العرب:(سخِر منه و به يسخَر سَخرا و سخرية هزئ به)(6) والسخرية هي الهزء بشيء ما لا ينسجم مع القناعة العقلية ، و لا يستقيم مع المفاهيم المنتظمة في عرف الفرد أو الجماعة . إنّها موقف متعال، مزدر بما هو شاذ وغريب،منقطع عن المألوف:" و في كل انقطاع عن المألوف شيء ما يثير الضحك"(7)

لقد كانت السخرية على مرّ العصور الأدبية تعالج المثال الخاطئ ، من أجل مسخه بطريقة كاريكاتورية تفضح العيوب ، و تجعل صاحبها ينفر من صورته، فيلجأ طوعا إلى إصلاح نفسه و لهذا كان "فرويد" يرى أنّ الضحك الناجم عن النكات التي يطلقها الناس يعدّ نوعا من التطهير(8). هذا بالإضافة لكون السخرية أداة تعليمية تجعل الآخرين يبتعدون عن الصورة المنحرفة كي لا يصبحوا مثارا لضحك هو بمثابة عقوبة اجتماعية.

و غالبا ما كانت السخرية أيضا تشكل وسيلة تنفيس عن المشاكل و الهموم الضاغطة(9). و كان الجاحظ أبو السخرية العربية يرى " أنّ السخرية مقدار فرضته البيئة وما فيها من هول و تهديد"(10).

2ـــ الهدف من السخرية:

مثلما تتسع السخرية لاستيعاب الأخطاء التي تتعثر بها في طريقها، قد ترتفع ـــ أحياناـــ سداً بوجه اليأس الذي تصفعنا به المفارقات اللامعقولة في الحياة. فتمنحنا الشجاعة لمواجهة مصيرنا بأسلوب تهكمي، فكه، نادرا ما يكون صادقا أو من الأعماق لكنه في الأغلب ، قاتم الملامح موجع. من هنا تتزاوج السخرية في وجهها الهازل مع الألم، فيأتي لوقعها صدى غريب، يمتزج فيه اليأس و الرجاء ،الدمعة بالضحكة، المأساة بالملهاة ، في خلط مذهل . فالسخرية رغم شكلها الهازل ،ذات وجه مأساوي ينطوي على فجيعة مدهشة إزاء لا معقوليات الشر و الخديعة في هذا العالم.(11) فتنطلق السخرية حينئذ تعويضا يعيد للمثل توازنها، و ذلك عبر قهقهة عابثة ،ينطلق دويها في ذروة الكشف العاري للحقائق ،حيث يختلط الإحساس المفجع باللاهي،وفق وتيرة ضحك مأساوي يختلف عن رنين الفرح.(12)

تسير السخرية في اتجاهين: اتجاه إيجابي بناء و اتّجاه سلبي هدّام، و الهدم مرحلة حتمية في إعادة البناء. و أياً كان اتجاهها و شكلها فإنّ طعم القسوة هو نكهتها الخاصة . لكن هذه القسوة ليست هي نفسها في كل مجالات السخرية ،إذ تتفاوت درجة حدّتها و قسوتها بحسب ما تقتضيه الظروف. فهي تبدأ بما يعرف بالغمز واللمز اللذين غالبا ما يردان في إطار من اللهو و الظرف و الضحك يبعدهما عن الإصابة المباشرة الجارحة، و يلطف وقعهما في النفس . هذا الوقع الذي يستشف استشفافا و يتفاوت بين شخص و آخر بحسب ذكائه و إرهاف حسّه. ثم تقوى السخرية شيئا فشيئا حتى تصبح هوجاء، مهشمة، تنال من هدفها دون مواربة إذ لا تغفلها أجواء المرح، و عندها تسمى تهكما.(13)إذا فالسخرية نقد أو طعن مصوغ في ثوب فكه، إنها بديل مقبول للعقاب وهجوم متعمد على شخص بهدف سلبه كلّ أسلحته و تعريته من كل ما يتخفى فيه ويتحصن وراءه.(14)

3ـــ تقنيات السخرية في" قلوبهم معنا و قنابلهم علينا"

إنّ قراءة متأنية لنصوص مجموعة أحلام مستغانمي: "قلوبهم معنا و قنابلهم علينا" نجدها قد أفرزت جملة من الآليات و التقنيات التي توظفها الكاتبة لتحقيق قدر كبير

من السخرية في هذه المقالات، التي تساهم في نهاية المطاف في إغواء القارئ وضمان محافظته على يقظة مستمرة أثناء القراءة.

3ــ1- التهكم اعتمادا على الأخبار و الأحداث اليومية:

التهكم هو استخدام الكلام للتعبير عن معنى مغاير للمعنى الحرفي بهدف السخرية، والتهكم ليس مجرد أداة أدبية و فنية ،بل يمكن القول أنه بمثابة منهج بإمكانه أن يشكل رؤية الكاتب للحياة ذاتها(15). و التهكم لون من السخرية و هو يلتبس بغيره من الأغراض فأولها يلتبس بالسخرية ،إلا أنّ التهكم يكون بطريقة غير مباشرة، و قد يلتبس بالهجاء أو التعريض أو الدعابة لكن هناك فروق بين هذه الأشكال و هو أنّ الهجاء صادر عن نفس غاضبة و حاقدة ، و الغرض من الهجاء التجريح والتشهير.أما الفرق بينها و بين التعريض فهو أنّ في التهكم يصرح بالفكرة المقصودة على عكس السخرية.(16)أما الدعابة فهي تفكه بين الأصدقاء و ليس لها غرض إلا الضحك. و في التهكم تمتزج الإثارة بالتشويق و الدهشة و المفاجأة، و هو مثير للذكاء والتأمل.(17)

قسّمت الكاتبة مدونتها إلى أبواب أربعة، بعضها معنون و البعض الآخر بلا عنوان. وقد يكون العنوان مأخوذا من إحدى المقالات كما هو الحال في عنوان المجموعة نفسها: " قلوبهم معنا وقنابلهم علينا". اختارت الكاتبة عناوينها بدقة متناهية تمتزج فيها عفوية الغضب ببراعة التعبير، هي عناوين أقرب إلى أوجاع الوطن العربي إن صح تسميته بالوطن أساسا. تختار الكاتبة العناوين الصادمة الكاشفة للعري العربي و أغلب مقالاتها ينطلق من الأخبار أو الأحداث اليومية لقربها من روح السخرية مثل: "فياغرا أم المعارك" تعتمد الكاتبة على استطلاع أجرته مجلة "نيويورك ماقازين" تحت عنوان" الحب بعد 11 أيلول" و التي جاء فيها أن 36 في المئة من الأمريكيين العازبين في نيويورك باتوا يسعون إلى الزواج و الاستقرار العائلي. "فالبعض في مواجهة القصف العشوائي للحياة يفضل أن يفتك به الحب على أن تفتك به الطائرات الحربية...أو أن يموت تحت برج التهمته النيران"(18) و بالمقابل تقف الكاتبة على خبر طريف فاجأنا به العراق قبيل الغزو الأمريكي ، مفاده أن العراقيين منهمكون في إنتاج " فياغرا أم المعارك" بخبرات محلية و في مختبرات عراقية. وهنا تتفجر السخرية السوداء حين تسخر الكاتبة من غباء الأمريكيين لاعتقادهم أن العراقيين مشغولون بتطوير سلاحهم النووي في حين أنهم

منشغلون بتطوير سلاحهم" المنوي".و هي سخرية مزدوجة من الأمريكان و العراقيين على حدّ سواء.

تستعين الكاتبة بالحديث النبوي الشريف في عنوان لمقالها:" إذا لم تستح..." توظف الحذف كي تزيد التهكم حدّة بالمسكوت عنه هذه المرة.تقول في المقدمة ــ منطلقة من خبر طبّي ــ يقول: "إنّ عشرة ملايين أمريكي يعانون من الحياء، و إنّ إنتاج الدواء الخاص بمعالجة أعراض الحياء قد تضاعف مؤخرا في أمريكا،لمساعدة ملايين الخجولين الذين يربك الخجل حياتهم"(19). تتعجب الكاتبة من هذا الحياء الأمريكي الجديد و تقول في لهجة تهكمية ساخرة:" بوش،لا فض فوه،و لا فو أبيه، ذكرنا بذلك الزمن الذي كنا نرى فيه الطيارين الأمريكيين يلقون قنابلهم على فيتنام دون أن (20) يتوقفوا عن مضغ العلكة،التي تبدو أنها إحدى وسائل مقاومة الحياء لدى الأمريكيين"(21) تكون الكاتبة في أحايين كثيرة سليطة اللسان، لاذعة في سخريتها مبدية براءة و حيادية مزيفة تختفي وراءها تقول في مقالها" من غير ليه:" لا تسألوني لماذا لا أحب بوش الأب،و لا بوش الأم، وإذا كان لا بدّ لي أن أختار واحدا من آل بوش فسأختار الكلبة بوش، تلك التي أثناء إقامتها في البيت الأبيض بصفتها الكلبة الأولى اختارت أن تضع مواليدها في غرفة نوم الرئيس"(22). من أطرف المقالات التي حوتها مجموعتها" قلوبهم معنا و قنابلهم علينا" مقال" حشرية أمريكية" يدور الموضوع حول إجراء معروف تقوم به الدول عند استقبال الزائرين في مطاراتها، وهو ملء بطاقة معلومات روتينية ، لكن الكاتبة صدمت ببطاقة المعلومات الأمريكية. و تستهل مقالها بعبارات غاية في التهكم:"...عليك أن تضمن و أنت معلّق بين السماء و الأرض حسن نواياك قبل أن تحطّ بك الطائرة في "معسكر الخير" (العبارة الشهيرة لبوش). والمشكلة لا تكمن في الوقت المحدد لملء هذه البطاقة فحسب والذي لا يتجاوز الدقائق الست ، بل و في طبيعة الأسئلة الغريبة التي تتضمنها هذه البطاقة العجيبة من مثل:هل أنت مصاب بمرض معد ؟أو باختلال عقلي؟ هل تتعاطى المخدرات؟ هل أنت سكير؟ هل تدخل الولايات المتحدة الأمريكية و أنت تضمر القيام بأنشطة إجرامية أوغير أخلاقية؟ هل أنت بين سنتي 1933و1945 و(من قبل حتى أن تخلق) أسهمت بشكل من الأشكال، في تشريد الناس باسم ألمانيا النازية؟(23) وأسئلة كثيرة أغرب من الغرابة نفسها و تتساءل الكاتبة باستخفاف عن من هو هذا الزائر المختل عقليا الذي سيجيب عن السؤال الأول "بنعم" معترفا بأنه مصاب باختلال عقلي. فالمجنون

آخر من يدري بجنونه.(24) و تستطرد الكاتبة ساخرة :" لو أنّ هذه الاستمارة وزعت على الأمريكيين ...لفرغت أمريكا من خمس سكانها..."(25) أماّ بقية الأسئلة فكافية لطرد ثلثي سكّان الولايات المتحدة خارج أمريكا، ليس فقط لتاريخهم الطاعن في الجرائم ضدّ الإنسانية منذ الهنود الحمر مرورا بفيتنام و حتى العراق..."(26)هكذا جاءت مقالات الكاتبة تنظر إلى الواقع العربي نظرة متشائمة، تكاد تصل درجة اليأس، ففي مقالها: "هزيمة الخنساء في مسابقة البكاء" تتظاهر الكاتبة بالحسرة على فقدان الخنساء لتاج النحيب و البكاء بعد أن حطمت سيدة غير عربية رقما قياسيا في البكاء و النحيب المتواصل بعد أن كان العرب يتربعون على عرش النحيب (على الأقل) تقول الكاتبة: "فقد زوّد الله الإنسان العربي دون غيره ببطارية شجون وهموم ،جاهزة لإمداده بطاقة البكاء ..أيا كان السبب"(27)

3ـــ2- اللغة المطعمة باللهجات العامية و الموروث الشعبي و الأقوال المأثورة:

باستعمالها لهذه اللغة تقترب الكاتبة من الذائقة العامة مرّة، و ترتقي إلى الذائقة النخبوية مرّة أخرى. كثيرة هي العناوين التي اختارتها الكاتبة من اللهجات العامية و من كلمات الأغاني العربية الشهيرة مثل:"من غير ليه، شوف بوش بقى و اتعلم، انزل ياجميل ع الساحة، أنا اعتزلت النضال، النعل بيكلم عربي..." و غيرها من العناوين التي تتصرف فيها الكاتبة بالتغيير و الحذف لتزيد من مرارة السخرية و قوتها . وتحضر الأمثال الشعبية العربية بقوة سواء في العناوين أم في المتون، و يلاحظ أن الكاتبة تتكئ عليها رافدا قويا من روافد التعبير الساخر مثل:" خلات راجلها ممدود و راحت تعزي في محمود، اضرب القطوسة..تفهم لعروسة،العريس يعرس و المشوم يتهرس ..." ترتقي الكاتبة (بعد أن تكون قد نزلت تقريبا إلى لغة شديدة المباشرة) ترتقي في عتبات بعض مقالاتها لتختار أقوالا غاية في الحكمة ومن مصادر شديدة التنوع، من مفكرين وفلاسفة و شعراء و ممثلين وسينمائيين و صحفيين و كتاب لتكون هذه العتبات دليلا على حساسية الكاتبة و ثقافتها براعتها في الاستهلال .تبرّر الكاتبة في مقالها" شوف بوش بقى و اتعلم" كيف أنها تعلمت منه الأدب و تورد قصّة عن ابن المقفع ، فقد سئل مرّة، من الذي أدّبك كلّ هذا الأدب؟ فأجاب:"نفسي". فقيل له: أيؤدب المرء نفسه بغير مؤدب؟ قال:" كيف لا كنت إذا رأيت في غيري حسنا تبنّيته، و إن رأيت قبيحا أبيته، بهذا أدّبت نفسي"(28). و تدعم ذلك بقول حماتها:" تعلم الأدب من قليل الأدب" (29) فهي تشكر بوش قليل الأدب لأنها تعلمت

منه الأدب. تستدعي الكاتبة بيت صدام الشهير الذي خدر العرب زمنا قبل أن يفيقوا من غفلتهم مذعورين يوم إلقاء القبض عليه غير مصدقين أنّ الأسد لم يعد أسدا تأتي ببيته مرّة مباشرة:

أطلق لها السيف لا خوف و لا وجل　　　أطلق لها السيف و ليشهد لها زحل(30)

مرة محرفا: أطلق لها اللحى(31)، بعد أن ألقي القبض على الرئيس الأسبق أشعث أغبر مطلقا لحيته، فاغرا فاه لطبيب أمريكي يفتش في فمه كأنه يفتش عن أسلحة الدمار الشامل،التي غزى الأمريكان العراق بذريعتها. حينما تصل الكاتبة درجة اليأس نتيجة هذا المشهد المروع الذي لم يصدقه العرب في البداية، تأتي بأقوال غاية في التعبير عن اللاجدوى، تستهل مقالها الصادم: لها ردف إذا قامت..أقعدها"(32) بحكمة تقول:" ليس في هذه الحياة ما يستأهل الاستيقاظ من أجله" و تواصل في تبرير يأسها بداية المقال حينما تستحضر قول الممثل الأمريكي الإيطالي الأصل آل باتشينو:" كلما انتابتني الرغبة في القيام بتمارين رياضية، اضطجعت على الفراش، و ظللت مضطجعا حتى تزول هذه الرغبة"(33) و استشهادها بقول عبد الله ثابت :" للشعوب كلمة أخيرة.. هكذا تقول المقابر الجماعية".من الأقوال المأثورة التي تصدر بها الكاتبة بعضا من مقالاتها ،أقوال غاية في الحكمة و تنتقل بالقارئ من اليأس إلى بصيص الأمل رغم طابع السخرية السوداء الذي يلون جل الموضوعات. في مقالها:" أشهروا علم المقاطعة" تصدر الكاتبة مقالها بقول المناضل الزنجي الأمريكي:" لا يستطيع أحد ركوب ظهرك إلاّ إذا كان منحنيا"(34). وللشعر دوما مكانته في كتابات أحلام، في مقالها " أنا اعتزلت النضال " والذي بثته آلامها و حزنها من "غزوة غزة" و انقضاض الفلسطينيين على بعضهم البعض، وتستدعي ذاكرتها قول درويش:" من يدخل الجنة أولا؟ من مات برصاص العدو أوبرصاص الأخ؟ بعض الفقهاء يقول: ربّ عدو لك ولدته أمّك" لتمتزج مرارة الكاتبة بمرارة الشاعر الكبير.(35)ما يدهشك في مجموعة الكاتبة حقا هو الحكمة التي ولدتها سخريتها و تهكمها اللاذع من الواقع السياسي العربي لتصير واحدة من حكماء زمن النكتة.تقول قي مقالها: " الطاغية ضاحكا في زنزانته" "الشعوب التي لا قيمة للإنسان فيها، التي تفتدي بالروح و بالدم جلاديها، لن يرحمها الآخرون"(36) و الأمر ذاته في مقالها:" العراقي.. هذا الكريم المهان" إذ تقول:" يكاد المرء يفقد صوابه، و هو يتابع نشرات الأخبار. لا يدري إن كان

يشاهد العراق أم فلسطين؟ الفلوجة أم جنين؟ لا يدري من تتلمذ على يد الآخر: أمريكا أم إسرائيل؟"(37)

3ـ3- الكاريكاتور في رسم الشخصيات و المبالغة في تصوير الأحداث:

يعتمد فن الكاريكاتور على تضخيم ملامح الشخصية المراد السخرية منها كما يميل إلى المبالغة في رسم الأحداث و تصويرها لتنسجم و روح الفكاهة المرجوة هنا. وبالرغم من أنّ الشخصيات التي تناولتها الكاتبة في مدونتها تحمل هي نفسها ملامح الكاريكاتور و الضحك الواقعي إلا أنها استطاعت و ببراعة أن تجعل ما هو مضحك أساسا أكثر إضحاكا ببشاعته و غبائه. و لعل أهم شخصية أولتها الكاتبة اهتمامها هي شخصية الرئيس بوش الابن (جورج ولكر) أو آل بوش عموما. في مقالها الجريء: "النعل بيكلم عربي" تصور الكاتبة شخصية بوش الابن يوم رمي بحذاء منتظر الزيدي، تقول:" كان الرجل ينتعلنا. كنا جزمته التي يمشي بها على التاريخ كما لو كان يمشي في التكساس بين أبقاره و آباره... ربما ظنّ أنهم قبله كانوا يمشون حفاة، لذا ما توقع كاوبوي التاريخ أن يكون لغضبهم أحذية.."(38)" صحيح أنّ ذلك الحذاء الطائر لم يصب وجه بوش،لكنه أصاب واجهته كنبيّ مبعوث رحمة للعالمين، و وجاهته كرئيس أكبر دولة في العالم"(39) و تزيد حدّة السخرية حين تعلق الكاتبة على تصريحات بوش:" و هي نكتة زاد من سخريتها السوداء تصريح رئيس معسكر الخير، و نائب السيد المسيح على الأرض، حين بشر الكرة الأرضية ، بلهجة تهديدية، قائلا، و هو واثق الخطوة يمشي ملكا:"نحن من يقود العالم إلى مصير أفضل". " القدّيس بوش الذي يحتفظ بنسخة من التوراة في مكتبه، و يبدأ يومه بالصلاة و الدعاء، حتى توصله ابتهالاته أحيانا إلى البكاء....خوفي عليه من الموت كاد يوصلني إلى التفكير في مطالبة طائفة الرائليين باستنساخه "(40).

و كانت شخصية صدام حسين نالت هي الأخرى حظها من التصوير الكاريكاتوري الساخر ولم يسلم ابنا الرئيس عدي و قصي من هذا الهجوم.في مقالها:" جوارب الشرف العربي" تقول:" تنتابك تلك المشاعر المعقدة أمام صورة القائد الصنم، الذي استجاب الله لدعاء شعبه و حفظه، من دون أن يحفظ ماء وجهه. و ها هو في السبعين من عمره وبعد جيلين من الموتى و المشردين و المعاقين،و بعد بضعة آلاف من التماثيل والصور الجدارية، و كعكات الميلاد الخرافية،و القصور ذات الحنفيات الذهبية ، يجلس في زنزانته مرتديا جلبابا أبيض، منهمكا في غسل أسمال ماضيه جواربه القذرة"(41) تعلق الكاتبة

على هذا المشهد بتعليق يفيض هزءا و استخفافا: "مشهد حميمي، يكاد يذكرك ب كليب نانسي عجرم، في جلبابها الصعيدي، و جلستها العربية تلك،تغسل الثياب في إناء بين رجليها، و هي تغني بفائض أنوثتها و غنجها: أخاصمك آه....أسيبك لا"(42)تظهر الكاتبة بسخر بريء يلامس الواقع و يطرق أكثر المواقف جدية:"أيكون هو؟ القائد الزعيم الأوحد، صاحب التماثيل التي لا تحصى، والصور التي لا تعدّ؟..."(43)"...الطاغية الذي ولد برتبة قاتل، ما كانت له سيرة إنسانية تمنحك حق الدفاع عن احترام خصوصيته،و شرح مظلمته"(44) و تستعين الكاتبة بالعبارات والألقاب التمجيدية المفارقة لموقفها في سخرية واضحة من الشخصية المسخور منها مثل:" طيب الذكر عديّ(45). و لا يسلم من التصوير الكاريكاتوري أي حاكم عربي فعل ببلده ما فعل صدّام إذ تذكر بقول الشاعر:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة و إذ نعـــلاك من جلد البعير

فسبحان الذي أعطاك ملكا و علّمك الجلوس على السرير(46)

لكن برغم الهجوم الشرس الذي تشنه الكاتبة على شخص الرئيس صدام حسين في جل المقالات،إلا أنها ــ و في مقال وحيد ــ بعنوان:" و الله ما أعدموا سوانا"(47) تقف الكاتبة أمام مشهد إعدام صدام كما وقف ملايين العرب الشرفاء مصدومة مختلطة المشاعر متعاطفة و في النهاية غاضبة رافضة الإهانة التي أدرك الجميع أنها إهانة لكل مسلم و لكل عربي، تبرر الكاتبة هذا الانقلاب في الموقف:" رجل أصبح نحن جميعا. و لذا اختار أن يغادر كبيرا ليحفظ ماء وجهنا أمام وقاحة الكاميرات وشماتة القتلة.."(48) " في لحظته الأخيرة حقق إنجازه الأجمل"(49) " كنا نريد له محاكمة تليق بجرائمه، و أرادوا له محاكمة تليق بجرائمهم، فانحزنا إليه عندما أدركنا أنهم كانوا يضعون حبل المشنقة في الواقع حول عنقنا"(50) "...لذا سعدنا عندما كان كما تمنيناه أن يكون، رفض أن يلبس قناع الشنق، و تركهم يواجهونه مقنعين، قذفوه بالشتائم ،فردّ عليهم بالشهادة. العدالة لا تحضر إلى المحكمة مقنعة...(51)"... لعله يعرف من زمن طغيانه أنّ الضحية دوما أكثر أناقة من جلاّدها.."(52) و تعترف الكاتبة في لغة مباشرة صدامية أنها بكت صداما مشنوقا،بكته إنسانا عربيا مسلما، ويوم كان حاكما بكت منه.(53)

3ــ 4- النكتة السياسية النابعة من المواقف الطريفة:

تحتفظ النكتة بأهمية خاصة في باب السخرية، ذي النزعة الثأرية لأن ثمة قدرة مدمرة للنكتة من حيث قدرتها على الإفشاء و الفضح. و الذي يعنينا في هذا المقام هو

النكات الهادفة و دورها في التعرية و الهدم و تهشيم المثال الخاطئ و تشويه صورته، بقصد النيل منه و الثأر للمفاهيم التي يدافع عنها الكاتب الساخر.(54)

تتكئ هذه النكات في الغالب على المفاجأة و الإدهاش، و هي في الأصل غطاء لهمّ جدي. في مقال بعنوان:" في رثاء القطّة الأولى"(55) تتخذ الكاتبة من خبر وفاة القطة "إنديا" الذي تداولته وسائل الإعلام الأمريكية كأنه حدث عالمي، تقول:" اعذروني.. سأبدأ هذا المقال بدقيقة صمت ترحما على القطّة الأولى" إنديا" التي أعلن البيت الأبيض وفاتها بتاريخ 6 يناير عن عمر يناهز 18 عاما، وهو عمر مات دون بلوغه ثلث شهداء الحرب الإسرائيلية على غزة،الذين قطّعت القنابل طفولتهم في الأسبوع نفسه، و لم يعزّ فيهم بوش..."(56) هكذا تكون المفارقة في الأحداث و المواقف مثيرة للمفاجأة والسخرية والإدهاش. تورد الكاتبة في مقالها:" زمن الحلاقة"(57) إحدى النكات التي تروى عن صدّام حسين، و هي أنه ما إن كان يجلس في كرسي الحلاقة ،حتى يبدأ حلاّقه الخاص يحدثه عن نيكولاي تشاوشيسكو و يحاول صدام تغيير الحديث. إلاّ أنّ الحلاّق يعود إلى الحديث عن الرئيس الروماني، الذي شهد العالم موته و زوجته مباشرة على التلفزيون. و أخيرا سأل صدّام الحلاّق: لماذا تحدثني دائما عن تشاوشيسكو؟ فقال الحلاّق لأنني عندما أذكر اسمه يقف شعر رأسك و تصبح حلاقته أسهل"(58) فالنكتة الساخرة إذا، تقصد إلى تعبئة المعنى المراد إيصاله في زاوية لا يطالها إلا الأذكياء، وبذلك تشكل ثأرا سلميا يؤكد التفوق العقلي للساخرين الذين يرتاحون إلى سلامتهم العقلية في مواجهة مرتكبي الأخطاء.(59) تقول الكاتبة أنه على أيام الاتحاد السوفياتي شاعت نكتة تقول:" إنّ لصوصا سطوا على وزارة الداخلية و سرقوا نتائج الانتخابات القادمة"(60) يمتزج هنا التهكم بالتعريض بالخصم ليفجر الضحك و السخرية.

خلاصة:

لقد شكلت السخرية في مقالات أحلام مستغانمي في مجموعتها" قلوبهم معنا وقنابلهم علينا" نمطا تعبيريا مميزا، جاء ردّ فعل استنكاري على أحداث و مواقف وشخصيات منحرفة،لذا تتخذ السخرية هنا طابع الاحتجاج و الثورة، إضافة إلى الفكاهة و الإمتاع اللذين لم يمنعا الكاتبة من ملامسة الجرح النازف في الوطن العربي في استغاثة إنسانية تحاول أن توقظ الضمير العالمي.

الهوامش:

(1) أحلام مستغانمي،قلوبهم معناو قنابلهم علينا،دار الآداب،بيروت،ط 2،2009،ص:8

(2) المصدر نفسه،ص:8

(3) المصدر نفسه،الصفحة نفسها

(4) من تقنيات السخرية في إمبراطورية المجانين،نجيب كيالي،الموقف الأدبي،العدد450

(5) سهيل كيوان، تحت سطح أكبر،فن السخرية و سلاطة اللسان،الموقع:www.inffo.org

(6) ابن منظور،لسان العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف،القاهرة،ط 6،ج7،ص:16،17

(7) أدونيس،زمن الشعر،دار العودة،بيروت،ط1،1972،ص:28

(8) ينظر سوزان عكاري،السخرية في مسرح أنطوان غندور،المؤسسة الحديثة للكتاب،بيروت،ط1،1991،ص:29

(9) المرجع نفسه،الصفحة نفسها

(10)عن المرجع نفسه،ص: 61

(11) المرجع نفسه،ص:16

(12) المرجع نفسه، ص:27

(13) المرجع نفسه،ص:25/24

(14) سيمون بطيش،الفكاهة و السخرية في أدب مارون عبود،ط1،1983،بيروت،ص:17

(15) نجلاء حسين الوقاد، بناء المفارقة في فن المقامات عند بديع الزمان الهمذاني والحريري،دراسة أسلوبية،مكتبة الآداب، القاهرة،2006،ص:132

(16) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(17) أحلام مستغانمي، قلوبهم معنا و قنابلهم علينا،ص:43
(18) المصدر نفسه،ص:16
(19) نفسه،ص:17
(20) نفسه،ص: 18
(21) نفسه، الصفحة نفسها
(22) نفسه، ص:13
(23) نفسه،ص:141/140
(24) نفسه،ص:141
(25) نفسه،ص:142
(26) نفسه، الصفحة نفسها
(27) نفسه،ص:187
(28) نفسه، ص:21
(29) نفسه، ص: 22
(30) نفسه، ص: 63
(31) نفسه،ص: 113
(32) نفسه،ص:81
(33) نفسه، الصفحة نفسها
(34) نفسه،ص: 223
(35) نفسه،ص:234
(36) نفسه،ص:66
(37) نفسه، ص: 70
(38) نفسه،ص:25
(39) نفسه،ص:26
(40) نفسه،ص:27
(41) نفسه،ص:78
(42) نفسه،ص:79
(43) نفسه،ص:113

(44) نفسه، الصفحة نفسها

(45) نفسه، ص:69

(46) نفسه،ص:126

(47) نفسه، ص:93

(48) نفسه، الصفحة نفسها

(49) نفسه، ص:94

(50) نفسه، الصفحة نفسها

(51) نفسه، الصفحة نفسها

(52) نفسه،الصفحة نفسها

(53) نفسه، ص:94

(54) سوزان عكاري،السخرية في مسرح أنطوان غندور،ص:30

(55) المصدر السابق،ص:29

(56) المصدر نفسه،ص:30

(57) نفسه،ص: 97

(58) نفسه، ص:98

(59) نفسه،سوزان عكاري، السخرية في مسرح أنطوان غندور،ص:30

(60) المصدر السابق، ص: 124